بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

لهذا الكتاب إخوة كبار عن أئمة الفقه الأربعة لأهل السنة ، والخامس منها عن الإمام جعفر الصادق إمام الشيعة ، تأخينا بها وصف الحياة التى حيوها ، وشرح أصول مذاهبهم ، وإظهار الجلال العلمى والهدى الإسلامى فى وقائع تتكلم على ألسنة رجال من لحم ودم ، لتتجلى بالطريقتين – الموضوعية والشخصية – عظمة الإسلام ، ودرجات الكمال فى الرجال ، وسماحة الشريعة ، واتساع فقهها واقتداره على أن يصلح العالم كله فى عصرنا الحاضر . فما أحراه أن يصلح به الله حال المسلمين الآن !

والمجتمع العالمى الآن يعالج حضاراته فى الشرق والغرب وفى العالم الثالث ، ويتنادى بقيم جديدة تعيذه من شرور الانحلال الخلقى والعاطفى ، الفردى والأسرى والاجتماعى ، وحرية الشهوة ، وشيوع المخدرات ، وتفاقم الجرائم ، والفزع الشخصى والجماعى من الدمار النووى المرتقب !

ولم تكف المستشفيات معالجة ضحايا المخدرات ولا التعليم محاربة اللذة المحرمة أو الفقر النفسى الذى ينزف ما تجمعه الحضارة المعاصرة بين أيدى البشر من آثار الإنتاج الكبير وأعراض النعمى والغضارة أو الفزع الذى ينزع الطمأنينة من أنفس الناس ، فيستكثروا من الإنتاج النووى وهم عليمون أن فيه هلاكهم ، فيضيفوا فزعاً إلى فزع . وتبخع الحضارة نفسها وهى فى كمال إدراكها !

ونزلت بعض المجتمعات عن حرياتها لدولها فنزلت ونزلت حتى خسرت خصائص آدميتها !

ولا جرم أن المجتمع الإسلامى المعاصر يعيش فى مستوى أدنى مما يؤهله له الإسلام . والإسلام قانونه الكفاح والمساواة والعدالة .

وإنما يستقعد أهله الانفصال بين العقيدة والسلوك ، والانحراف عن الوسيلة الكفيلة بالتقدم ، وهى جلية لأعينهم قائمة بين أيديهم ، أعلنها مالك بن أنس فى مقولته الجارية على الألسن : إن هذا الأمر لا يصلح آخره إلا بما صلح به أوله !

وفى هذا المعترك الفسيح للإصلاح بذل كل إمام جهده ، ليعيد المسلمين إلى الجادة .

وفى القرنين السابع والثامن بلغ الفساد كل مبلغ ، فلم يقتصر على الجمود والتقليد أو على الامتناع عن الجهاد ، أو الاستهتار بالقيم الدينية ، بل تجاوزها إلى الأنقطاع عن التوحيد واستبدال الطقوس والبدع الذميمة أو المكفرة بالدين الصحيح .

وكان من فضل الله أن أتاح ابن تيمية للإصلاح ، فخاض معركة الدفاع عن الدين ببراعة واقتدار ، وخلف بمؤلفاته وسيرة حياته محجة واضحة سار عليها «ابن عبد الوهاب» ، وأضاف إلى فقهه القيمة العظمى التى تهب الحياة للكلمات ، يوم حمل دعوة التوحيد بالحكمة والموعظة الحسنة فى يد ، وسيف القوة فى يد ، فأمكنه الله من تطبيق الشريعة . وصلح أمر الجماعة فى سنوات ، وتتابع على نهجه المصلحون من بعده .

* * *

ومن أجل الاعتبار بما صنعه ابن عبد الوهاب وحاجة العصر الحالى إلى التأسى بكل كلمة قالها وكل صنيع صنعه – وضع هذا الكتاب ؛ ليذكر كل ذى بصر أن صفحات هذا التاريخ العظيم تتكرر . وصدق رسول الله ﷺ : «مثل أمتى كالمطر لا يدرى : أوله خير أم آخره» .

كانت الإمبراطوريتان الفارسية والرومانية تمسكان كرة الأرض من الشرق والغرب من جزيرة العرب ، وتملكان الزاد والعتاد ، يوم أشرقت شمس الإسلام ، فى حين لم يكن المسلمون يملكون إلا عقيدتهم . وانتصر أصحاب العقيدة على العالم فى سنوات معدودات . وكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله !

وكهيئة ذلك الانتصار تماماً – وفى المكان ذاته – تكررت دروس العقيدة على يد الإمام محمد ابن عبد الوهاب ، لتُظهر السماء بنى الدنيا مرة إثر أخرى ، على أن عقيدة التوحيد تهب الشجاعة وتحدث الانتصار ؛ إذ يتواعد الرجال الصلب على الجنة ؛ ليظفروا بالشهادة أو بالنصر . وهم فى الحالتين منتصرون ؛ ولتظهر على مدار قرنين ونيف بعد موت الإمام – أن الذين لا تسقط أعلام الجهاد من أيديهم لا يخسرون أرواحهم ؛ وإنما يهبون بها الخلود لأمتهم ؛ فتغدق السماء حيث تشح السحب ، وتنجب الأمة حيث تجدُب الأرض !

بهذا أصبحت المملكة العربية السعودية دولة رائدة فى المجتمع العالمى ، معلمة للمجتمع الإسلامى ، بانتصار الشريعة على الجريمة والرذيلة والتواكل والجهل والفشل التى رحضت مواهب غيرها من الأمم ، وبسيادة العدالة والطمأنينة ، وانتشار الجامعات وازدهار الأخلاق الرغيبة والائتمار بالمعروف والتناهى عن المنكر .

وبهذا قامت جماعة إسلامية حقًا هى آدى للأمانة واكد فى التعامل ، وأبعد من التبذل ، وأصون للحرمات ، تتواصل فيها الطبقات وتكدح ، وتجد وتجتهد ، وتثبت لعالم تتخاذل دوله ،

وتتسلل شعوبه – أن العذاب يحل بالأمم من أنفسها ، ولا يصيب الذين ظلموا خاصة ، وأن الله صادق وعده ناصر جنده ، وإن غبى عن ذلك عبدة القوة أو المادة ، أو عمى الآخرون عن رؤية الواقع !

* * *

والإمام محمد بن عبد الوهاب لا يقدم للعالم ولا للمسلمين نظرية فلسفية ؛ وإنما يقدم أعمالا ومنجزات . والعمل ملاك الفكر الإسلامى ، وهو فكر إيجابى كله ، والإيمان فيه إقرار وعمل .

والتاريخ إذ يسجل لنا منجزاته يعرضها للبشرية على الطريقة الإسلامية المعلّمة : فتبدأ ببداية الإسلام فى الصحراء ، وتستطرد فى الذيوع والنماء والتمكين ، مع الالتزام الدقيق بمنهج السلف الصالح ؛ لتنشئ فى جزيرة العرب دولة كبرى تزاحم بمنكب ضخم ، فى موكب التقدم ، وتتبع أحدث أساليب التكنولوجيا ، وتبهت أعداء الشريعة بنجاح مقطوع القرين ، فتنفى اتهام الجاهلين للفقه الإسلامى بالتخلف عن سداد حاجات المسلمين فى القرون الحديثة ، وتُعلم الجميع أن الوسيلة (الوحيدة) للنهوض بالأمة هى تطبيق الشريعة .

وبارك الله فى الأرض التى طهرتها الشريعة ، فدرّت ينابيعها بالعطاء ، إرشادًا من السماء للناس كافة ، إلى حيث يولى المسلمون وجوههم ؛ ليعبدوا الله وحده ، وليعملوا لدنياهم صادقين .

وبارك الله لابن عبد الوهاب . فلم يلق ربه إلا بعد أن شهد توحيد الجانب الشرقى من جزيرة العرب إيذانًا بوحدتها الكاملة بعده ، وإن تراخى الزمان – فما الأعوام أو الحوادث فى تاريخ الديانات إلا منارات ، أو أحرف يكتب بها التاريخ كلماته .

والمسلمون أمة نسجت مقومات وجودها وبقائها من قيم الإسلام .

وكل يوم يمر على الأمة – دون أن تعمل بها – يوم من أيام الضياع ينزل بها الهزائم ، ويزيد الغشاوة على أبصار أبنائها كثافة ، فيتشاحّون على العيش الرغد أو على مجرد البقاء فى الأرض وإن كان فيه الهوان .

وصدق رسول الله ﷺ : « توشك الأمم أن تداعى إليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها » . فقال قائل : أمن قلة نحن يومئذ ؟ قال : « بل أنتم يومئذ كثير ولكنكم كغثاء السيل ، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم . وليقذفن فى قلوبكم الوهن » قال قائل : يا رسول الله ما الوهن ؟ قال : « حب الدنيا وكراهة الموت » .

* * *

وبعد فهذا الكتاب أقسام ثلاثة فى أبواب تستقرئ التاريخ ، وتستشهد الوقائع ، وتدل على الداء ، وتقدم الطب الذى طبه له الإمام .

الأول : يعرض – فى صورة عجلى – ألفا ومائة عام من عمر أهل الإسلام ، وكيف أسلمتهم

الفرقة الباكرة والحكومات الجائرة وانطواء العلماء من قرن بئيس إلى قرن أبأس ! وكيف نشأت البدع الصغار لتنتشر كالشرار ، فتسرى من بعدُ كالنار فى هشيم المحتظر ، فتهز أركان الجماعة فلا يبقى لها من التوحيد – وهو أصل الدين – إلا مجرد النطق بالشهادة ومن أمور العبادة إلا أشكالها . ويتعطل الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . وهو الدواء الفطرى الذى أمرت به السماء ، لتستعمل الفطرة فى علاج الذات ، فتستجيب له بالطبيعة .

والثانى : يعرض ميلاد رجل قدرته السماء ، ليصلح ما أفسدته القرون السابقة ولتستفتح به الأمة أسباب الصمود فى عصورها الحديثة مع ظهور الحضارة الغربية وسيطرتها ، لتُعدّ المسلمين للاقتدار على التطور ، بالعودة إلى أصل الدين وهو التوحيد ، وإلى خصيصة الجماعة الإسلامية ، وهى الائتمار بالمعروف والتناهى عن المنكر . وكيف نجح الشيخ ، واتخذ المنهج السلفى عمادًا لفكره وقواعد الحرية القانونية التى يمتاز بها فقه أحمد بن حنبل وأحمد بن تيمية سنادًا لفقهه . مع سلوك مسلك الصحابة والتابعين وأئمة الفقه :

١ – بتعليم المسلمين بالمجلس النبيه فى (العيينة) و(الدرعية) . وبالمؤلفات الواضحة المقنعة لإدحاض البدع التى أركست المسلمين فى الحضيض من قبل عصره وفى إبان عصره ، ومازالت مقاومتها وسيلة لإقالة المسلمين من عثارهم فى العصور التى تلته .

٢ – ويحمل السيف على الذين يلحدون فى الدين ويشركون بالله من عبدة الأصنام من الحجر أو الشجر أو النامس .

والثالث : يظهر الدور الذى قامت به أسلحة محمد بن سعود وبنيه فى خدمة الدعوة ، وبسالة الأبطال فى الاستشهاد من أجل العقيدة ، وانتصار المذهب السلفى والدعوة الوهابية ، وانتقال الدعوة بالحروب المظفرة أو المعارك الخاسرة إلى خارج جزيرة العرب ، وخارج القرن الذى ظهرت فيه ، لنرى فى كل بلدان الإسلام . وكل داعية للإصلاح فى القرنين اللذين أعقبا موت ابن عبد الوهاب تلميذًا له فى الفكر ، يدين بتعاليمه جملة وتفصيلا .